شيخ الإسلام ابن تيمية حياته ومناقبه [2-3]
الكاتب : موسى بن سليمان السويداء
التاريخ : 2 ديسمبر 2011 م
المشاهدات : 7016

شيخ الإسلام ابن تيمية حياته ومناقبه[2-3]

في ذكر شيء من ورعه :

كان ـ رضي الله عنه ـ في الغاية التي ينتهي إليها في الورع لان الله تعالى أجراه مدة عمره كلها عليه فإنه ما خالط الناس في بيع ولا شراء ولا معاملة ولا تجارة ولا مشاركة ولا زراعة ولا عمارة ولا كان ناظراً مباشراً لمال وقف ولم يكن يقبل جراية ولا صلة لنفسه من سلطان ولا أمير ولا تاجر ولا كان مدخراً ديناراً ولا درهماً ولا متاعاً ولا طعاماً وإنما كانت بضاعته مدة حياته وميراثه بعد وفاته ـ رضي الله عنه ـ العلم اقتداء بسيد المرسلين وخاتم النبيين محمد وعلى آله وصحبه أجمعين فإنه قال : (إن العلماء ورثة الأنبياء وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهما إنما ورثوا العلم فمن أخذ به فقد اخذ بحظ وافر) .

فأنظر بعين الإنصاف إلى ما وفق له هذا الإمام وأجرى عليه ما أقعد عنه غيره وخذل عن طلبه لكن لكل شئ سبب وعلامة عدم التوفيق سلب الأسباب ومن أعظم الأسباب لترك فضول الدنيا التخلي عن غير الضروري منها ..

فلما وفق الله هذا الإمام لرفض غير الضروري منها انصبت عليه العواطف الإلهية فحصل بها كل فضيلة جليلة بخلاف غيره من علماء الدنيا مختاريها وطالبيها والساعين لتحصيلها فإنهم لما اختاروا ملاذها وزينتها ورئاستها انسدت عليهم غالباً طرق الرشاد فوقعوا في شركها يخبطون خبط عشواء ويحطبونها كحاطب ليل لا يبالون ما يأكلون ولا ما يلبسون ولا ما يتأولون ما يحصل لهم أغراضهم الدنيئة ومقاصدهم الخبيثة الخسيسة فهم متعاضدون على طلبها يتحاسدون بسببها أجسامهم مليئة وقلوبهم من غيرها فارغة وظواهرهم مزخرفة معمورة وقلوبهم خربة مأسورة، ولم يكفهم ما هم عليه حتى أصبحوا قالين رافضها معادين باغضها .

ولما رأوا هذا الإمام عالم الآخرة تاركاً لما هم عليه من تحصيل الحطام من الشبه الحرام رافضاً الفضل المباح فضلاً عن الحرام تحققوا أن أحواله تفضح أحوالهم وتوضح خفي أفعالهم وأخذتهم الغيرة النفسانية على صفاتهم الشيطانية المباينة لصفاته الروحانية.

فحرصوا على الفتك به أين ما وجدوه ونسوا أنهم ثعالب وهو أسد فحماه الله تعالى منهم بحراسته وصنع له غير مرة كما

صنع لخاصته وحفظه مدة حياته وحماه ونشر له عند وفاته علماً في الأقطار بما والاه .

في ذكر بعض زهده :

أما زهده في الدنيا ومتاعها فإن الله تعالى جعل ذلك له شعاراً من صغره حدثني من أثق به عن شيخه الذي علمه القرآن المجيد قال: " قال لي أبوه وهو صبي يعني الشيخ أحب إليك أن توصيه وتعده بأنك إن لم تنقطع عن القراءة والتلقين ادفع إليك كل شهر أربعين درهما . قال: ودفع إلي أربعين درهما، وقال : أعطه إياها فإنه صغير وربما يفرح بها فيزداد حرصه في الاشتغال بحفظ القرآن ودرسه وقل له لك في كل شهر مثلها. فامتنع من قبولها وقال: يا سيدي إني عاهدت الله تعالى أن لا آخذ على القرآن أجرا، ولم يأخذها . فرأيت إن هذا لا يقع من صبي إلا لما لله فيه من العناية " .

قلت : وصدق شيخه فإن عناية الله هي التي أوصلته إلى ما وصل من كل خير من صغيره لا من كبر .

ولقد اتفق كل من رآه خصوصاً من أطال ملازمته أنه ما رأى مثله في الزهد في الدنيا حتى لقد صار ذلك مشهوراً بحيث قد استقر في قلب القريب والبعيد من كل من سمع بصفاته على وجهها بل لو سئل عامي من أهل بلد بعيد من الشيخ من كان أزهد أهل هذا العصر وأكملهم في رفض فضول الدنيا وأحرصهم على طلب الآخرة لقال : ما سمعت بمثل ابن تيمية ـ رحمة الله عليه ـ .

وما اشتهر له ذلك إلا لمبالغته فيه مع تصحيح النية وإلا فمن رأينا من العلماء قنع من الدنيا بمثل ما قنع هو منها أو رضي بمثل حالته التي كان عليها لم يسمع انه رغب في زوجة حسناء ولا سرية حوراء ولا دار قوراء ولا مماليك جوار ولا بساتين ولا عقار ولا شد على دينار ولا درهم ولا رغب في دواب ولا نعم ولا ثياب ناعمة فاخرة ولا حشم ولا زاحم في طلب الرئاسات ولا رئي ساعياً في تحصيل المباحان مع أن الملوك والأمراء والتجار والكبراء كانوا طوع أمره خاضعين لقوله وفعله وادين أن يتقربوا إلى قلبه مهما أمكنهم مظهرين لإجلاله أو أن يؤهل كلا منهم في بذل ماله .

فأين حاله هذه من أحوال بعض المنتسبين إلى العلم وليسوا من أهله ممن قد أغراه الشيطان بالوقيعة فيه بقوله وفعله أترى ما نظروا ببصائرهم إلى صفاتهم وصفاته وسماتهم وسماته وتحاسدهم في طلب الدنيا وفراغه عنها وتحاشدهم في الاستكثار منها ومبالغته في الهرب منها وخدمتهم الأمراء واختلافهم إلى أبوابهم وذل الأمراء بين يديه وعدم اكتراثه بكبرائهم وأترابهم وصدعه إياهم بالحق وقوة جأشه في محاورتهم بلى والله ولكن قتلتهم ألحالقه حالقة الدين لا حالقة الشعر وغطى على أحلامهم حب الدنيا السارقة سارقة العقل لا سارقه البدن حتى أصبحوا قاطعين من يأتيهم في طلبها واصلين من وأصلهم في جلبها .

في كرمه مع فقره المدقع :

كان رضي الله عنه مع شدة تركه للدنيا ورفضه لها وفقره فيها وتقلله منها مؤثرا بما عساه يجده منها قليلاً كان أو كثيراً جليلاً أو حقيراً لا يحتقر القليل فيمنعه ذلك عن التصدق به ولا الكثير فيصرفه النظر إليه عن الإسعاف به فقد كان يتصدق حتى إذا لم يجد شيئاً نزع بعض ثيابه المحتاج إليه فيصل به الفقير وكان يتفضل بقوته القليل الرغيف و الرغيفين فيؤثر بذلك على نفسه وربما خبأهما في كمه ويمضي ونحن معه لسماع الحديث فيراه بعضنا وقد دفعه إلي الفقير مستخفياً يحرص أن لا يراه أحد وكان إذا ورد عليه فقير وآثر المقام عنده يؤثره عند الأكل بأكثر قوته .

حدثني الشيخ الصالح العارف زين الدين علي الو اسطي ـ ما معناه ـ انه أقام بحضرة الشيخ مدة طويلة قال : " فكان قوتنا في غالبها انه كان في بكرة النهار يأتيني ومعه قرص قدره نصف رطل خبزا بالعراقي فيكسره بيده لقماً ونأكل منه أنا وهو جميعاً ثم يرفع يده قبلي ولا يرفع باقي القرص من بين يدي حتى اشبع بحيث أني لا أحتاج إلي الطعام إلى الليل وكنت أرى ذلك من بركة الشيخ ثم يبقى إلي بعد العشاء الآخرة حتى يفرغ من جميع عوائده التي يفيد الناس بها في كل يوم من أصناف القرب فيؤتي بعشائنا فيأكل هو معي لقيمات ثم يؤثرني بالباقي وكنت أسأله أن يزيد على أكله فلا يفعل حتى إني كنت في

نفسي أتوجع له من قلة أكله" .

وحكى غير واحد ما اشتهر عنه من كثرة الإيثار وتفقد المحتاجين والغرباء ورقيقي الحال من الفقهاء والقراء واجتهاده في مصالحهم وصلاتهم ومساعدته لهم بل ولكل أحد من العامة والخاصة ممن يمكنه فعل الخير معه وإسداء المعروف إليه بقوله وفعله ووجهه وجاهه.

في تواضعه :

وأما تواضعه فما رأيت ولا سمعت بأحد من أهل عصره مثله في ذلك كان يتواضع للكبير والصغير والجليل والحقير والغنى الصالح والفقير وكان يدني الفقير الصالح ويكرمه ويؤنسه ويباسطه بحديثه المستحلى زيادة على مثله من الأغنياء حتى أنه ربما خدمه بنفسه وأعانه بحمل حاجته جبراً لقلبه وتقرباً بذلك إلي ربه .

وكان لا يسأم ممن يستفتيه أو يسأله بل يقبل عليه ببشاشة وجه ولين عريكة ويقف معه حتى يكون هو الذي يفارقه كبيراً كان أو صغيراً رجلاً أو امرأة حراً أو عبداً عالماً أو عامياً حاضراً أو بادياً ولا يجابهه ولا يحرجه ولا ينفره بكلام يوحشه بل يجيبه ويفهمه ويعرفه الخطأ من الصواب بلطف وانبساط .

وكان يلزم التواضع في حضوره من الناس ومغيبه عنهم في قيامه وقعوده ومشيه ومجلسه ومجلس غيره. ولقد بالغ معي في حال إقامتي بحضرته في التواضع والإكرام حتى إنه لا يذكرني باسمي بل يلقبني بأحسن الألقاب ويظهر لي خصوصاً بين أصحابي من الإكرام والتبجيل والإدناء منه بحيث لا يتركني اجلس إلا إلى جانبه قصيراً كان مجلسه أو طويلاً خاصاً أو عاماً ولازمني في حال قراءتي " صحيح البخاري " وكان قصدي قراءته على رواية منفرداً لاستصغاري نفسي عن القراءة هناك بمحضر من الناس ولقصدي تعجيل فراغي منه انتهازاً للفرصة وخوفاً من فوات ذلك الشيخ الراوي لكونه تفرد بروايته سماعا على أصحاب أبى الوقت السجزي .

فلما سمع الشيخ بذلك ألزمني قراءته بمجمع كثير من الناس رجالاً ونساء وصبياناً وقال ما ينبغي إلا على صفة يكون نفعها متعدياً إلى المسلمين فتجرد لي بحيث حصل لي مرادي وفوقه من تحصيل قراءتي له في عشرين مجلسا متوالية لم يتخللها سوى الجمعة ولازمني فيها وحضر القراءة كلها يضبطها بنسخة كانت بيده هي أصل ابن ناصر الحافظ يعارض بها نسخة القراءة وكانت أصل الشيخ المسمى .

وأظهر لي من حسن الأخلاق والمبالغة في التواضع بحيث أنه كان إذا خرجنا من منزله بقصد القراءة يحمل هو بنفسه النسخة ولا يدع أحدا منا يحملها عنه وكنت أعتذر إليه من ذلك خوفا من سوء الأدب فيقول لو حملته على رأسي لكان ينبغي ألا احمل ما فيه كلام رسول الله ؟

وكان يجلس تحت الكرسي ويدع صدر المجالس حتى إني لأستحي من مجلسه هناك وأعجب من شدة تواضعه ومبالغته في إكرامي بما لا استحق ورفعي عليه في المجلس ولولا قراءتي حديث رسول الله وعظم حرمتها لما كان ينبغي لي ذلك .

وكان هذا حاله في التواضع والتنازل والإكرام لكل من يرد عليه أو يصحبه أو يلقاه حتى أن كل من لقيه يحكي عنه من المبالغة في التواضع نحوا مما حكيته وأكثر من ذلك فسبحان من وفقه وأعطاه وأجراه على خلال الخير .

في هيئته ولباسه :

كان ـ رضي الله عنه ـ متوسطاً في لباسه وهيئته لا يلبس فاخر الثياب بحيث يرمق ويمد النظر إليه ولا أطماراً ولا غليظة تشهر حال لا بسها ويميز من عامة الناس بصفة خاصة يراه الناس فيها من عالم وعابد بل كان لباسه وهيئته كغالب الناس ومتوسطهم ولم يكن يلزم نوعاً واحداً من اللباس فلا يلبس غيره بل كان يلبس ما اتفق وحصل ويأكل ما حضر وكانت بذاذة الإيمان عليه ظاهرة لا يرى متصنعا في عمامة ولا لباس ولا مشية ولا قيام ولا جلوس ولا يتهيأ لأحد يلقاه .

وأخبرني غير واحد أنه ما رآه ولا سمع أنه طلب طعاماً قط ولا غداء ولا عشاء ولو بقي مهما بقي لشدة اشتغاله بما هو فيه من

العلم والعمل بل كان يؤتي بالطعام وربما يترك عنده زماناً حتى يلتفت إليه وإذا أكل أكل شيئاً يسيراً قال وما رأيناه يذكر شيئاً من ملاذ الدنيا ونعيمها ولا كان يخوض في شيء من حديثها ولا يسأل عن شيء من معيشتها بل جعل همته وحديثه في طلب الآخرة وما يقرب إلي الله تعالى .

وهكذا كان في لباسه لم يسمع أنه أمر أن يتخذ له ثوب بعينه بل كان أهله يأتون بلباسه وقت علمهم باحتياجه إلي بدل ثيابه التي عليه .

وأخبر أخوه الذي كان ينظر في مصالحه الدنيوية أن هذا حاله في طعامه وشرابه ولباسه وما يحتاج إليه مما لا بد منه من أمور الدنيا وما رأيت أحداً كان أشد تعظيماً للشيخ من أخيه هذا أعني القائم بأوده وكان يجلس بحضرته كأن على رأسه الطير وكان يهابه كما يهاب سلطاناً وكنا نعجب منه في ذلك ونقول : من العرف والعادة أن أهل الرجل لا يحتشمونه كالأجانب بل يكون انبساطهم معه فضلاً عن الأجنبي ونحن نراك مع الشيخ كتلميذ مبالغ في احتشامه واحترامه فيقول: " إني أرى منه أشياء لا يراها غيري أوجبت علي أن أكون معه كما ترون " وكان يسأل عن ذلك فلا يذكر منه شيئاً لما يعلم من عدم إيثار الشيخ لذلك .

في ذكر بعض كراماته وفراسته :

أخبرني غير واحد من الثقات ببعض ما شاهده من كراماته وأنا أذكر بعضها على سبيل الاختصار وأبدأ من ذلك ببعض ما شاهدته :

فمنها اثنين جرى بيني وبين بعض الفضلاء منازعة في عدة مسائل وطال كلامنا فيها وجعلنا نقطع الكلام في كل مسألة بأن نرجع إلى الشيخ وما يرجحه من القول فيها ثم أن الشيخ ـ رضي الله عنه ـ حضر فلما هممنا بسؤاله عن ذلك سبقنا هو وشرع يذكر لنا مسألة مسألة كما كنا فيه وجعل يذكر غالب ما أوردناه في كل مسألة ويذكر أقوال العلماء ثم يرجح منها ما يرجحه الدليل حتى أتى على آخر ما أردنا أن نسأله عنه وبين لنا ما قصدنا أن نستعلمهُ منه فبقيت أنا وصاحبي ومن حضرنا أولاً مبهوتين متعجبين مما كاشفنا به وأظهره الله عليه مما كان في خواطرنا .

وكُنت في خلال الأيام التي صحبته فيها إذا بحث مسألة يحضر لي إيراد فما يستتم خاطري به حتى يشرع فيورده ويذكر الجواب من عدة وجوه .

وحدثني الشيخ الصالح المقريء أحمد بن الحريمي أنه سافر إلى دمشق قال : " فاتفق أني لما قدمتها لم يكن معي شيء من النفقة البتة وأنا لا اعرف أحداً من أهلها فجعلت أمشي في زقاق منها كالحائر فإذا بشيخ قد أقبل نحوي مسرعاً فسلم وهش في وجهي ووضع في يدي صرة فيها دراهم صالحة وقال لي انفق هذه الآن وخلي خاطرك مما أنت فيه فإن الله لا يضيعك ثم رد على أثره كأنه ما جاء إلا من أجلي فدعوت له وفرحت بذلك وقلت لبعض من رأيته من الناس من هذا الشيخ ؟ فقال : وكأنك لا تعرفه هذا ابن تيمية لي مدة طويلة لم أره اجتاز بهذا الدرب وكان جل قصدي من سفري إلى دمشق لقاءه فتحققت أن الله أظهره علي وعلى حالي فما احتجت بعدها إلى أحد مدة إقامتي بدمشق بل فتح الله علي من حيث لا احتسب واستدللت فيما بعد عليه وقصدت زيارته والسلام عليه فكان يكرمني ويسألني عن حالي فاحمد الله تعالى إليه " .

وحدثني الشيخ العالم المقريء تقي الدين عبد الله ابن الشيخ الصالح المقريء احمد بن سعيد قال : " سافرت إلى مصر حين كان الشيخ مقيماً بها فاتفق أني قدمتها ليلاً وأنا مثقل مريض فأنزلت في بعض الأمكنة فلم ألبث أن سمعت من ينادي باسمي وكنيتي فأجبته وأنا ضعيف فدخل إلي جماعة من أصحاب الشيخ ممن كنت قد اجتمعت ببعضهم في دمشق فقلت : كيف عرفتم بقدومي وأنا قدمت هذه الساعة فذكروا أن الشيخ أخبرنا بأنك قدمت وأنت مريض وأمرنا أن نسرع بنقلك وما رأينا أحدا جاء ولا أخبرنا بشيء، فعلمت أن ذلك من كرامات الشيخ ـ رضي الله عنه – " .

وحدثني أيضاً قال : " مرضت بدمشق إذ كنت فيها مرضة شديدة منعتني حتى من الجلوس فلم اشعر إلا والشيخ عند رأسي

وأنا مثقل مشتد بالحمى والمرض فدعا لي وقال : جاءت العافية فما هو إلا أن فارقني وجاءت العافية وشفيت من وقتي " .

وحدثني أيضاً قال : " كنت قد استكتبت شعراً لبعض من انحرف عن الحق في الشيخ (أي ابن تيمية) قد تنقصه فيه وكان سبب قول ذلك الشعر أنه نسب إلي قائلة شعر وكلام يدل على الرفض فأخذ الرجل وأثبت ذلك عليه في وجهه عند حاكم من حكام الشرع المطهر فأمر به فشهر حاله بين الناس فتوهم أن الذي كان سبب ذلك الشيخ فحمله ذلك على أن قال فيه ذلك الشعر وبقي عندي وكنت ربما أورد بعضه في بعض الأحيان فوقعت في عدة أشياء من المكروه والخوف متواترة ولولا لطف الله تعالى بي فيها لأتت على نفسي فنظرت من أين دهيت فلم أر لذلك سبباً إلا إيرادي لبعض ذلك الشعر فعاهدت الله أن لا أتفوه بشيء منه فزال عني أكثر ما كنت فيه من المكاره وبقي بعضه وكان ذلك الشعر عندي فأخذته وحرقته وغسلته حتى لم يبق له أثر واستغفرت الله تعالى من ذلك فأذهب الله عني جميع ما كنت فيه من المكروه والخوف وأبدلني الله به عكسه ولم أزل بعد ذلك في خير وعافية ورأيت ذلك حالاً من أحوال الشيخ ومن كرامته على الله تعالى " .

وحدثني أيضاً قال : " أخبرني الشيخ ابن عماد الدين المقرئ المطرز قال : قدمت على الشيخ ومعي حينئذ نفقة فسلمت عليه فرد علي ورحب بي وأدناني ولم يسألني هل معك نفقة أم لا فلما كان بعد أيام ونفدت نفقتي أردت أن اخرج من مجلسه بعد أن صليت مع الناس وراءه فمنعني وأجلسني دونهم فلما خلا المجلس دفع إلي جملة دراهم وقال أنت الآن بغير نفقة فارتفق بهذه فعجبت من ذلك وعلمت أن الله كشفه على حالي أولاً لما كان معي نفقة وأخراً لما نفدت واحتجت إلى نفقة " .

وحدثني من لا أتهمه : " أن الشيخ ـ رضي الله عنه ـ حين نزل المغول بالشام لأخذ دمشق وغيرها رجف أهلها وخافوا خوفا شديداً وجاء إليه جماعة منهم وسألوه الدعاء للمسلمين فتوجه إلى الله ثم قال أبشروا فإن الله يأتيكم بالنصر في اليوم الفلاني بعد ثالثة حتى ترون الرؤوس معبأة بعضها فوق بعض . قال الذي حدثني : ـ فوالذي نفسي بيده ـ أو كما حلف ما مضى إلاّ ثلاث مثل قوله حتى رأينا رؤوسهم كما قال الشيخ على ظاهر دمشق معبأة بعضها فوق بعض " .

وحدثني الشيخ الصالح الورع عثمان بن احمد بن عيسى النساج : " أن الشيخ ـ رضي الله عنه ـ كان يعود المرضى بالبيمارستان بدمشق في كل أسبوع فجاء على عادته فعادهم فوصل إلى شاب منهم فدعا له فشفي سريعاً وجاء إلى الشيخ يقصد السلام عليه فلما رآه هش له وأدناه ثم دفع إليه نفقة وقال قد شفاك الله فعاهد الله أن تعجل الرجوع إلى بلدك أيجوز أن تترك زوجتك وبناتك أربعا ضيعة وتقيم هاهنا؟ فقبل يده . وقال : يا سيدي أنا تائب إلى الله على يدك . وقال : الفتى وعجبت مما كاشفني به وكنت قد تركتهم بلا نفقة ولم يكن قد عرف بحالي أحد من أهل دمشق " .

وحدثني من أثق به : " أن الشيخ ـ رضي الله عنه ـ أُخبر عن بعض القضاة انه قد مضى متوجهاً إلى مصر المحروسة ليقلد القضاء وأنه سمعه يقول حال ما أصل إلى البلد قاضياً احكم بقتل فلان رجل معين من فضلاء أهل العلم والدين قد أجمع الناس على علمه وزهده وورعه ولكن حصل في قلب القاضي منه من الشحناء والعداوة ما صوب له الحكم بقتله فعظم ذلك على من سمعه خوفاً من وقوع ما عزم عليه من القتل لمثل هذا الرجل الصالح وحذراً على القاضي أن يوقعه الهوى والشيطان في ذلك فيلقى الله متلبساً بدم حرام وفتك بمسلم معصوم الدم بيقين وكرهوا وقوع مثل ذلك لما فيه من عظيم المفاسد فأبلغ الشيخ ـ رضي الله عنه ـ هذا الخبر بصفته فقال : إن الله لا يمكنه مما قصد ولا يصل إلى مصر حياً فبقى بين القاضي وبين مصر قدر يسير وأدركه الموت فمات قبل وصولها كما أجرى الله تعالى على لسان الشيخ ـ رضي الله عنه ـ " .

قلت : وكرامات الشيخ ـ رضي الله عنه ـ كثيرة جداً لا يليق بهذا المختصر أكثر من ذكر هذا القدر منها ومن اظهر كراماته أنه ما سمع بأحد عاداه أو غض منه إلاّ وابتلي بعدة بلايا غالبها في دينه وهذا ظاهر مشهور لا يحتاج فيه إلى شرح صفته .

في ذكر كرمه رضي الله عنه :

كان ـ رضي الله عنه ـ مجبولاً على الكرم لا يتطبعه ولا يتصنعه بل هو له سجية وقد ذكرت فيما تقدم أنه ما شد على دينار

ولا درهم قط بل كان مهما قدر على شيء من ذلك يجود به كله وكان لا يرد من يسأله شيئاً يقدر عليه من دراهم ولا دنانير ولا ثياب ولا كتب ولا غير ذلك بل ربما كان يسأله بعض الفقراء شيئاً من النفقة فإن كان حينئذ متعذرا لا يدعه يذهب بلا شيء بل كان يعمد إلى شيء من لباسه فيدفعه إليه وكان ذلك المشهور عند الناس من حاله .

حدثني الشيخ العالم الفاضل المقرئ أبو محمد عبد الله ابن الشيخ الصالح المقرئ احمد بن سعيد قال : " كنت يوما جالسا بحضرة شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رضي الله عنه ـ فجاء إنسان فسلم عليه فرآه الشيخ محتاجاً إلى ما يعتم به فنزع الشيخ عمامته من غير أن يسأله الرجل ذلك فقطعها نصفين واعتم بنصفها ودفع النصف الآخر إلى ذلك الرجل " .

وقد روي مثل ذلك عن سيد الأنام وأكمل الخلق مروءة وعقلاً وعلماً محمد المصطفى صلى الله عليه وسلم انه : (لبس يوما شملةً سوداء لها حواش بيض وخرج إلى المسجد وجماعة من المسلمين حضور فرآه إنسان فقال : يا رسول الله أعطني هذه الشمله وكان لا يمنع سائلاً يسأله فنزعها رسول الله عن جسده المكرم ودفعها إلى ذلك الرجل وطفق الناس يلومون ذلك الرجل على ما فعل وكونه سأل النبي وكان محتاجاً إلى ما لبسه وقد علم انه لا يمنع شيئاً يسأله فقال : الرجل معتذراً إليهم إني لم أطلبها لألبسها لكن لأجعلها لي كفناً عند موتي) قال : الراوي فامسكها عنده حتى كانت كفنه .

وهذا حديث مشهور قد رواه غير واحد من الحفاظ النقلة الثقات وهو من أوضح الدلائل على ما قلناه بل أبلغ في الجود والتواضع وكسر النفس وكرم الأخلاق .

وحدثني من أثق به أن الشيخ ـ رضي الله عنه ـ كان ماراً يوماً في بعض الأزقة فدعا له بعض الفقراء وعرف الشيخ حاجته ولم يكن مع الشيخ ما يعطيه فنزع ثوباً على جلده ودفعه إليه وقال بعه بما تيسر وأنفقه واعتذر إليه من كونه لم يحضر عنده شيء من النفقة .

وهذا أيضا من المبالغة في عدم اكتراثه في غير ما يقرب إلى الله تعالى وجوده بالميسور كائناً ما كان وهذا من أبلغ إخلاص العمل لله عز وجل فسبحان الموفق من شاء لما شاء .

وحدثني من أثق به : " أن الشيخ ـ رضي الله عنه ـ كان لا يرد أحداً يسأله شيئاً من كُتبه بل يأمره أن يأخذ هو بنفسه ما يشاء منها " .

وأخبرني : " أنه جاءه يوماً إنسان يسأله كتاباً ينتفع به فأمره أن يأخذ كتاباً يختاره فرأى ذلك الرجل بين كتب الشيخ مصحفاً قد أُشترى بدراهم كثيرة فأخذه ومضى . فلام بعض الجماعة الشيخ في ذلك فقال : أيحسن بي أن امنعه بعد ما سأله دعه فلينتفع به " .

وكان الشيخ ـ رضي الله عنه ـ ينكر إنكاراً شديداً على من يسأل شيئاً من كُتب العلم التي يملكها ويمنعها من السائل ويقول : " ما ينبغي أن يمنع العلم ممن يطلبه " .

ومن كرمه انه كان لا ينظر مع ذلك إلى جهة الملك والأمراء في عطاياهم للعلماء وهذا القدر من كرمه يغنى المقتدي به .

المصدر : رابطة أدباء الشام

المصادر: